النثر الأدبي — ٢

صور جديدة من الأدب العربي

بقلم الدكتور طه حسين

يذكر القراء المقالات التي نشرت في « المقتطف » بهذا العنوان في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ وقد عني صاحبها كامل كيلاني بجمعها وطبعها على حدة ونحن يسرنا أن نقدمها إلى القراء بكلمة الدكتور طه حسين البليغة فيها : —

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلاني فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسي، وفي مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس، هو ما يسميه الناس «مناظرة» بين هؤلاء العلماء والأدباء

جميلة خصبة هذه الفكرة لأنها تعرض — على جمهرة المستنيرين — ألواناً من الحياة العقلية العربية، ما كانوا ليلتفتوا إليها أو يفكروا فيها، لأنها مطوية عنهم في ثنايا الكتب وبطون الأسفار

وهي — على ذلك — ناحية جميلة قيمة : فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للأخلاق، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين في عصر من أجل عصورهم وأزهاها، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرآة الناصعة العقلية — مرآة التاريخ — التي تبين للمعاصرين أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم في أنحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير، ويتصل بعضها بالخلق، ويتصل بعضها بطريقة الملاءمة بين التفكير والخلق

فالذين يقرأون ما عرضه المؤلف — من مظاهر الخصومة — بين الهمذاني والخوارزمي، وبين الكسائي وسيبويه، وبين المتنبي وأبي فراس وابن خالويه والحاتمي، وبين أبي العلاء وداعي الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدهم يختصمون ويتنافسون، ويكيد بعضهم لبعض، ويمكر بعضهم ببعض، ويظلم بعضهم بعضاً، ثم ينتصف التاريخ للمظلوم من الظالم، ويثأر للبريء ممن اعتدى عليه ؛ ولكنهم يرون أنفسهم في حياتهم هذه التي يحيونها ؛ والتي يأتمر فيها بعضهم ببعض، ويجني فيها بعضهم على بعض، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والأسباب — ما كان يتخذه القدماء، ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء، ثم يظهرونه على نحو ما كان يظهره القدماء

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همذاني يكيد للخوارزمي ويحكم الكيد، ويأسر يخدعهم تملق المتملقين ولباقة اللبقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — كسائي يستظهر على سيبويه بجاه أولي السلطان والبأس، ويعتز عليه بالمأجورين والمرتزقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم يتساقطون على قصور الملوك والأمراء كما يتساقط الذباب ؛ فيكيدون فيها للعلماء والأدباء والساسة وأهل الرأي ؛ ويبلغون — من ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه

ثم ما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم زعموا انهم يدعون إلى الخير ؛ ويصدون عن الشر ؛ ويأمرون بالمعروف ؛ وينهون عن المنكر ؛ وهم — مع ذلك — يلقون الشباك ؛ ويمدون الاشراك ؛ يصيدون بها المفكرين والباحثين كيداً لهم ، ونكاية بهم ، وعدواناً عليهم

* * *

كل أولئك احياء بيننا ، نراهم — في كل يوم — ويشقى بهم كرام الناس — في كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم الماقتون

ولكنا نراهم — في صورتهم الصحيحة المرذولة — حين نقرأ كتاب كامل كيلاني ؛ لاننا نراهم — على بعد الزمن وانقطاع الاسباب — وقد ذهبت الاحقاد ، وماتت الضغائن فيهم . فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة التي يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم — صلات المنافع والمضار ، فكان بيننا وبينهم — التعاون والتنافس

نعم ، ونحن نرى — في هذا الكتاب — ما لا نستطيع ان نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء أن يروه ، وسيراه أبناؤنا من بعدنا ؛ وهو حكم التاريخ لنحسن ، وقضاؤه على المسيء

* * *

قدمت — منذ أعوام — إلى الناس ، طبعة كامل كيلاني لرسالة الغفران ، بعد ان يسّرها وقرّبها إلى المستنيرين الذين يريدون ان يتأدبوا — دون ان يتفقوا أنفسهم على العلم الخالص العسير

وكنت سعيداً شديد الاغتباط ، لأني رأيت هذه العناية — بأوساط المثقفين — تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها ؛ فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط القارئ

وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربي — بل رأيت من المستشرقين في أوربا من يرضى عنها ، ويعجب بها ؛ لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعي لنفسه أكثر من أنه يبذل جهداً صادقاً لتقريب العلم — الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم

وعلى هذا النحو ، يسرني أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القيم الخصب الممتع في وقت واحد

* * *

كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يصطنع خصلتين لابدّ منهما :

الأولى : أن يكون سهلاً سمحاً ، يسيراً قريباً ، لا يكلّف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يحبب إليه المراجعة

الثانية : أن يحرص على الانصاف ، ويأخذ به نفسه أخذاً شديداً ، فلا يظلم العلماء والأدباء ، ولا يظلم القراء المحدثين فيفسد آراءهم في العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، لأن لهم علينا حق الأمانة والصدق

وإني لسعيد بأن أهدي — الى كامل — أصدق التهنئة ، لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق . فلقد قرأت كتابه — حين كان ينشر فصولاً في المقتطف — ثم قرأته أمس ، فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتممته ، لم يناني سأم ولا ملل ولا فتور ، لأن ما في الكتاب — من الحياة — والحركة وخفة الروح — خليق أن يستبقي نشاطك موفوراً ، منذ تبدأ الكتاب إلى أن تتمه

أما الخصلة الثانية ، فقد تعودت مع أصدقائي جميعاً — ومع كامل خاصة — أن أكون صريحاً شديد الصراحة ، ولست أشك في ان الانصاف ظاهر في الكتاب ، بحسب القراء ، مهما تختلف طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم ، ولكن في الكتاب شيئاً لا أدري ما هو — يشعرني بأن شخصية المؤلف لم تستطع أن تستتر كل الاستتار ، بل أظهرت كثيراً من عواطفها وميولها ، وكأنها تريد — ولو في استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول

* * *

أظنني عرفت هذا الشيء ، ففي كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف ، فهو — اذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده ، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره ، وفيه كرم يتجاوز به الإنصاف إلى الإسراف في الإنصاف ، فهو لا يكتفي بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالإلحاح عليه وتشديد النكير

وما أرى أن الكسائي يستحق منه هذه الشدة المسرفة في القسوة ، فمكان الكسائي — من الرواية والقراءة والنحو — يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله

ومهما يجمع المجمعون على ان القول ما قال سيبويه ، فاني أحب ألا ننسى ان مذهب سيبويه واصحابه — في النحو — كان مذهب قياس وتعليل وان مذهب الكسائي واصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب ، وأن لكل من المذهبين خطره وقيمته

كذلك كنت احب أن يرفق كامل بالحاتمي — كما رفق ابن خالويه — فكلاهما أسرف على المتنبي ، ولكن كاملاً ابتسم للنحوي وسخر من الاديب ، ومع ذلك فهذا الاديب خليق ان نبتسم له ، لأنه صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة — نوعاً من حياة الادباء في القرن الرابع تستحق ان نقف عنده ونفكر فيه

* * *

أثارت قراءة هذا الكتاب في نفسي هذه الخواطر ، وخواطر اخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح باثباتها ، وأحب الكتب — إليّ — ما يثير في نفسي الخواطر ، ويشطني للتفكير

فليكن موقع هذا الكتاب — من نفوس القراء جميعاً — كموقعه من نفسي . إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما اراد ، وبما هو اهل لان يظفر به